

# الخطاب الأميركي لـ «تحرير» الثقافة العربية

إغلاق العقل بالتشويه والتشهير والمغال

. أحمد الخميسي .

## التشهير بالرموز بعد سقوط العراق

للدكتور عبد المحسن صالح كتابٌ صغيرٌ اسمه **ما هو الموت؟**، يقصّ فيه تجربةً أجراها العلماء على كلبٍ لمعرفة ماهية الموت. يقول إنهم فصلوا كلَّ أعضاء الكلب عن جسمه، واحتفظوا أثناء ذلك فقط برأسه حيًّا منزوعًا من البدن. ولكنهم حين قاموا عبْرَ الأنابيب بضحّ المحاليل والدماء إلى الرأس، فتَحَّ الكلبُ عينيه وتعرّف إلى صوت صاحبه وأخذ يلُفّق يديه!

الموت، إذن، هو موتُ العقل الذي يَصُون الوعي والذكريات والإرادة. والحال أنّ الولايات المتحدة الأميركية قد تمكّنت من تمزيق الأرض العربية بقنابلها العنقودية وصواريخها، وبسَطت هيمنتها السياسية والاقتصادية في بلدان كثيرة دون طلقة رصاص، لكنّ الحياة لم تفارق «العقل» العربي الذي مازال قادرًا على التعرف إلى صوت بلاده. وفي سبيل «تحرير» الثقافة العربية على طريقة «تحرير العراق»، تكثّف أميركا هجومها بخطابٍ فكري دعائي، وبرنامج متكامل يُنشط على مستويين متضافرين سياسيًا وثقافيًا؛ وهدفها في ذلك تدميرُ مخزون العداة الشعبي للسياسة الأميركية، وإغلاق عيني ذلك العقل الذي مازال يرى أنّ هناك «أشياء لا يُمكن أن تُشتري».

في هذا الإطار كَثُفت أميركا هجماتها لشغل الأنظار عن واقع احتلال العراق بمناظر وأحاديثٍ أخرى. وأطلق الرئيس جورج دبليو بوش وكُتّابه ومؤلفوه حكاياتٍ لا تنتهي أقرب إلى قصص ألف ليلة وليلة؛ ومنها: حكاية السرداب السريّ الذي فرَّ عبْرَه صدّام حسين، وحكاية صناديق الذهب والثروة التي يجدها البعض بالمصادفة السعيدة، وخيانة الوزير جعفر في قصر هارون الرشيد، وحكايات عن الأسرى الذين يُظهرون بغتةً على سطح الأرض بعد ثلاثين عامًا كاملةً من ظلم السلطان الجائر. حكايات لا تُنفد بُرئتها، كلّها جرت في الماضي، وتُهدف إلى مجرد شغلّ الأبصار لا للإفادة من دروس الطغيان السابق؛ ذلك لأنّ تلك الإفادة لا بدّ أن تعني ضمناً أن نتعلّم كيف نكافح الطغيان الاستعماريّ الجديد.

وإلى جانب ذلك كله، كان لا بدّ من قصف الأقلام والمنابر التي وقفت ضدّ العدوان الأميركي على العراق:

– بتشويه سمعتها الأخلاقية، كما حدّث مع صحفيّ مصريّ كبير في جريدة صوت الأمة:

– أو بقرص أذن الكُتّاب الوطنيين باعتقالهم فترةً محدودةً، كما حدّث مع مصطفى بكري صاحب جريدة الأسبوع:

– أو بإغلاق المنبر ذاته، كما تمّ مع جريدة الصدى:

– أو بالصاق تهمة إقامة علاقات خاصة بالنظام العراقيّ، كما جرى مع النجم اللامع عادل إمام والممثل القدير محمد صبحي؛

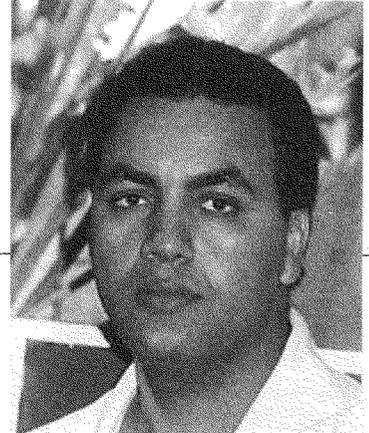
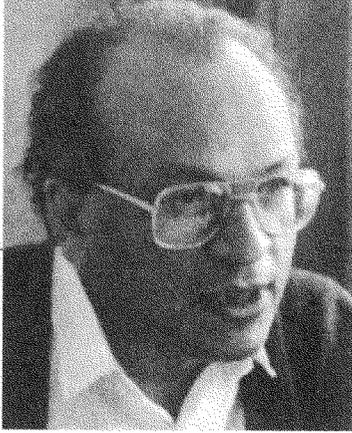
– أو بترويع البعض الآخر، كما جرى مع الروائيّ المعروف جمال الغيطاني بادّعاء كتابته روايةً لصدّام حسين لكي لا يستمرّ الغيطاني على موقفه الشجاع من العدوان الأميركيّ في صحيفة أخبار الأدب التي يتّأس تحريزها.

أسماء كثيرة على المستوى المصريّ والعربيّ تردّت في حملة التشهير الأميركيّ، لم يسبق لأحد أن تناولها بتلك الاتّهامات. ولكنّ سقوط بغداد هو الذي أغرى الكثيرين بالتهجّم والتشهير، وأصبح المطلوب من كلّ الذين ناهضوا العدوان الإجراميّ أن يعتذروا أو يكفّوا أو يتراجعوا ويؤثّروا السلامة. بل إنّ الاعتذار عن المقاومة بات مطلوبًا من دولٍ أيضًا، الأمر الذي اضطرّ رئيس الوزراء الفرنسيّ نفسه إلى التصريح بأنّه «ليس على فرنسا أن تقدّم اعتذارًا عن موقفها حيال الأزمة العراقية!»

الخطاب الثقافيّ الأميركيّ:  
الديموقراطية أم الاحتلال؟

إلا أنّ شغلّ الأنظار بحكايات الماضي عن واقع احتلال العراق، والهجوم السافر على

❖ صحفي وقصاص ومترجم مصريّ، حاصل على الدكتوراه في الأدب المقارن من جامعة موسكو. وهو مراسل الأرباب في مصر منذ بداية ٢٠٠٢.



كان لا بد من قصف الأقاليم والمناير التي وقفت ضد العدوان الأميركي، فاعتقل مصطفى بكري، وأتهم عادل إمام بإقامة علاقات خاصة مع النظام العراقي. وادعى أن جمال الغيطاني كتب رواية لصدّام

بمحاورة الطغيان في أوراقي العراقية فحسب، دون أن يتجرأوا على جذوره الأميركية التي ارتوت منها تلك الأوراق. الديمقراطية هنا منفصلة، ويجب أن لا تقترب أو تتقاطع مع قضية التحرر. وهذا ما دُفع مجموعة من المثقفين إلى القول في بيان لهم صدر أثناء الاحتلال الأميركي للعراق: «إن انتزاع الديمقراطية مفتاح لمهمتنا التاريخية في التغيير الاجتماعي والحدائي...» من دون أن يشيروا بحرفٍ إلى مهانة الاحتلال الجاثم على صدر العراق! ومن هذا المنطلق ذاته كُتِبَ أحد كبار الأدباء العرب: «لقد علّمنا الطغيان أن نحْتفل بهزيمة جيشنا!» هذه العبارة للكاتب الليبي أحمد إبراهيم الفقيه تُبلورُ النظرة التي تُفضّلُ طغيان الاحتلال الخارجي على الطغيان المحلي، إلى درجة الاحتفال بسحق القوات الغازية للجيش العراقي، علمًا بأن تجزئة الطغيان أمر مستحيل: ذلك لأنّ مَنْ يرفضون الاستبداد القومي لا بدّ لهم من باب أولى أن يرفضوا استبداد المستعمرين والغزاة!

### منظّمات حقوق الإنسان بين الفرد والوطن

هذه النظرة التي تُعزل الديمقراطية عن الوطنية مكّنت أيضاً الطابور الخامس من منظّمات حقوق الإنسان المموّلة من إحلال حقوق الإنسان الجزئية مكان حقوق الأوطان الكلية، بحيث غدا حق الفرد

الاحتلال؟ أليس الاحتلال أعنف انتهاك للديموقراطية؟ وإذا كنّا نريد حقاً انتزاع الديمقراطية فلم لا نواجه أفضع أشكال قهر الديمقراطية، أي الاستعمار؟ إن الباحثين عن الديمقراطية حقاً عليهم أن يمدّوا بحُثمهم هذا إلى البحث عن علاقة الديمقراطية بالتحرر الوطني ومواجهة الاحتلال، وأن يفتشوا أيضاً عن المقصود بالديموقراطية: هل هي الأدوات والمفاهيم التي تساعد على تحرير الوطن، أم أنها الأدوات والمؤسسات الهادفة إلى سحق الديمقراطية بمضامينها الاجتماعية والاقتصادية والقومية الحقيقية؟

ينطلق الخطاب الثقافي الأميركي لـ «تحرير» الثقافة العربية من أن الديمقراطية في حدّ ذاتها مكسبٌ تاريخي ضخم، وأن واجب المثقفين كان وما زال هو التصدي للطغيان. إلا أن الأمر المدهش هنا أن «واجب» المثقفين هذا ينتفي تماماً إذا كان الطغيان مجسّداً في أنظمةٍ صديقةٍ لأميركا، أو في شخص الدولة الأميركية ذاتها. ولهذا نلاحظ أن الذين صوّبوا نيرانهم على إداة الطابع الفاشي للنظام العراقي السابق غَضُّوا النظرَ تماماً عن أن تلك الإداة - إذا مدّت على استقامتها - كانت تستدعي إداة السياسة الأميركية بالتهمة ذاتها، لأنّها قدّمت الدعم للنظام العراقي في كل خطوة ومكنته من سحل المعارضة السياسية داخل بلاده لأكثر من ربع قرن. لكنّ دعاة الخطاب الثقافي الأميركي اكتفوا

رموز مقاومتها ثقافياً، ليس إلا عمليةً صغيرة لـ «تنظيف» أرض المعركة تمهيداً لما هو أكبر وأخطر، وأعني: البرنامج الأميركي لـ «تحرير» الثقافة العربية. وهو برنامج ترصد له الأجهزة الأميركية ملايين الدولارات علناً، وعنه يصرّح كولن باول وزير الخارجية الأميركية بالقول: «إنه برنامج إشاعة الديمقراطية بخمسة وعشرين مليون دولار». هذا البرنامج وهذه الأموال تُنشئ معها جماعات ومنظمات لا تنتهي لخلق وترويج «خطاب ثقافي» ينطلق من الديمقراطية (وفق المفهوم الرسمي الأميركي تحديداً) ليحلّها محلّ التحرر الوطني والقومي. والديموقراطية هنا تبدو مطلباً في حدّ ذاتها، منفصلاً عن مستلزمات التحرر الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والوطني؛ وينحصر في الليبرالية البرلمانية، وحرية الصحافة، والتعددية الحزبية، والحق الانتخابي، وحرية الأفراد. إنّها ذلك النمط من الديمقراطية الذي يثرونه على النخبة من مثقفي البلدان المحتلة وشبه المستعمرة، لكي تشكّل فئة خاصة داخل بلادها ذات امتيازات، منفصلة عن همومها الرئيسية.

إنّ أحداً منّا لا يشكك في أهمية حرية الصحافة وحقوق الإنسان والتعددية الحزبية، لكن اعتراضنا هو على اتجاه تلك العملية ووظيفتها وأهدافها التي نرى أنّها يجب أن تتسق مع المطلب العامّ للتحرر. فهل ثمة ديموقراطية في ظلّ

المنتَهَك في قسم الشرطة هو القضية الرئيسية لا حقوق المواطنين جميعاً المنتهكة بالاذلال، ولا الأساطيل الأميركية في مياه الخليج، ولا الهيمنة على أسواق المنطقة، ولا مراة الوجود الإسرائيلي. لقد جعلت بعض هذه المنظمات من أضرار الختان في الشرق العربي الموضوع الأول. وإذا كان الدفاع عن حقوق الأفراد والأقليات أمراً مشروعاً وضرورياً، فلا بد لكي يكون ذلك الدفاع حقيقياً أن يمتد بموقفه إلى نهايته الطبيعية: أي إلى الدفاع عن حقوق الوطن في مجمله في مواجهة الاستعمار. لكن تلك المنظمات تفصل عن عمد بين «تحرر الفرد» - وهو مستحيل في وطن مستعبد - وتحرير الوطن، وتبذل جهودها كله من أجل تجزئة «مفهوم الحقوق» وعدم ربطه بالحق الوطني العام.

### مفاهيم أخرى في الخطاب الثقافي الأميركي

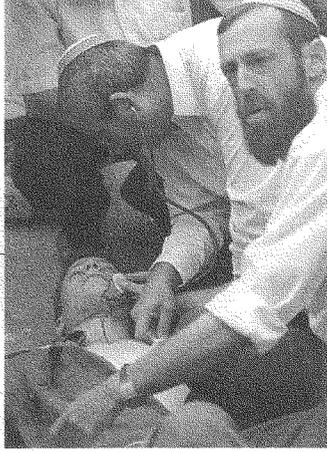
هذه التجزئة تمتد وفقاً للخطاب الثقافي الأميركي إلى مفهوم «الوطن». فالوطن لم يعد يُعرف الحدود (إلا إذا كان دولة أوروبية ذات شأن يمكنها من وقف تدفق المهاجرين إليها). ولم تعد ثمة حاجة إلى «الدولة» القومية (إلا إذا دار الحديث عن دولة كفرنسا أو بريطانيا) بعد أن برزت العولة باعتبارها قدراً لا راد له، ومن ثم أصبح من الضروري تقليص دور الدولة الوطنية لكي لا تضع الحواجز أمام قفزة

رؤوس الأموال عبر الحدود. وقد نجح الخطاب الثقافي الأميركي إلى حد كبير في خلط ورقتي التقدم التقني وثورة المعلومات والاتصالات بقضية الجوهر الاقتصادي المستبَد للعولة، وأشاع أن العولة بإنجازاتها التقنية لا بد أن تتضمن بدهة القبول بشروطها الاقتصادية والسياسية الراهنة. فلا يتبقى أمام الشعوب - والحالة هذه - سوى القبول بحلاوة الظاهرة ومرارتها معاً، أو رفض إنجازاتها وطابعها الاستغلالي معاً. وبعبارة أخرى، فإن علينا - إذا كنا حريصين على التقدم العلمي من وجهة النظر تلك - أن نقبل بالتخلف الاقتصادي والسياسي!

وإلى جانب فصل الديمقراطية عن الوطنية، وإحلال المفاهيم الجزئية لتحرر مكان مفهوم الوطن، وإشاعة أن العولة قدر الإنسان في هذا العصر، تبذل أقلام الهجوم الفكري الأميركي كل طاقتها لنشر ما تسميه «ثقافة السلام». وهذه الثقافة تعني القبول بالواقع الناجم عن الغزو والاحتلال الأميركي - الإسرائيلي للعراق وفلسطين، وتهديد سوريا ولبنان وليبيا والسودان وإيران وغيرها. وتقوم هذه الدعوة على افتراض يخالف كل تاريخ الصراع العربي - الأميركي الإسرائيلي، ومؤذاه أننا نحن العرب مُشبعون بكل ميول العنف والعدوان، وبناءً عليه ينبغي تغيير كل برامج التعليم (كان ذلك في مقدمة الأهداف الأميركية في العراق) في

العالم العربي، وفي مصر بخاصة. وينبغي أيضاً إعادة تهذيبنا، وتربيتنا، بشطب كل الكلمات والفقرات التي تشير في برامج التعليم إلى إسرائيل وأميركا بصفتها عدوين. وباختصار، لا بد من ثقافة سلام تتولى ترويض الشخصية العربية وقئلت دوافع المقاومة فيها، كما سبق لأميركا أن فعلت ببرامج تعليم استهدفت ترويض الشخصية اليابانية والألمانية بعد الحرب العالمية الثانية بزعم وجود ميول عدوانية في ثقافتها الشعبيين. ولا بد من ثقافة سلام لترسيخ المكاسب التي حصلت عليها إسرائيل بالحرب.

ثقافة السلام، وفقاً للخطاب الأميركي، تستدعي حتماً تحقير أي فكرة أو نزعة للمقاومة. ومن ثم ارتفعت معاول كتاب الطابور الخامس لتسهيل التراب على كل صور المقاومة خلال الحرب العراقية - الأميركية. وبذلت صحف وقنوات عربية جهداً خارقاً لتنتفي أن الفلاح العراقي «منقاش» أسقط المروحية الأميركية «أباتشي»، مؤكدة أنه عثر عليها بالصادفة. أما سجل المقاومة العراقية اليومية للاحتلال فليس سوى «حوادث متفرقة»، أو عمليات يقوم بها «أنصار صدام» - وكان دعاة الخطاب الأميركي يستكثرون مقاومة الاحتلال على الشعب العراقي! وأما عمليات المقاومة الفلسطينية فيتم وصفها بـ «الإرهاب». ويدور الحديث بعد ذلك عن خطاب ديني «جديد» يُزرع



بذلت صحف وقنوات عربية جهداً خارقاً لتفتي أن فلاحاً عراقياً أسقط مروحية أميركية، وتنتعت المقاومة العراقية بأنها «حوادث متفرقة»، والمقاومة الفلسطينية بالإرهاب

بارجاس، ولا كل الكتاب الذين يُمضون على ضوء فكرته، أن هناك على الأقل صلةً بين حرية الفرد وحرية الآخرين؛ فالحرية في رأيهم أمرٌ فردي، والثقافة حيادية، وعصرُ القضايا الكبرى في الأدب قد انتهى، بينما تشظت الشخصية الأدبية والزمن في الرواية والقصة.

### إغلاق العقل

وعامةً فإن علينا، وفقاً لتلك المفاهيم، أن نَعترف بعجز الإنسان عن إدراك قوانين الواقع، أو عجزه عن تغيير ذلك الواقع إلى الأفضل. وتذهب ملايين الدولارات لإشاعة الخطاب السياسي والثقافي الأميركي في كل ركن. ولم يعد خافياً ذلك الانتشارُ المروعُ في مصر لعمليات تمويل النشاط الثقافي من قِبل السفارات الأجنبية، ومختلف الجهات التي تصبّ أصولها في النهاية لدى الأجهزة الأميركية المعنية. وبذلك تتم أوسع عملية شراء لأكبر شريحة من المثقفين الذين يُنشدون «الخطاب الثقافي الأميركي» بهدف إغلاق عيني «العقل» الذي يصون الوعي والإرادة ويحفظ صوت بلاده ورائحة حقولها.

القاهرة

ذات جوهر ثابت، تعبر عن «وعي مسبق». وبذلك يتم تجاهل أن العثور على هويتنا الحقيقية لا يكون إلا بتعيين وتجاوز ما يواجهنا من تحديات الآن ومستقبلاً. وفي المجال الأدبي يُنفق الأميركيون الكثير على ترويج مفاهيم أدبية محددة. يقول د. مجدي يوسف: «الهدف الرئيسي الذي يَشغل وسائل الإعلام ومعاهد التعليم ومختلف وسائل الاتصال الجماهيري المهمة في عالمنا، بل والجوائز الأدبية والثقافية، هو تأكيد استغراق الأفراد في عوالمهم الذاتية الخاصة.»<sup>(١)</sup> مرةً أخرى يتم عزل الفرد عن الآخرين، وتجزئة المجتمع. وفي هذا الإطار يُنظر إلى الحرية بمعزل عن أية حركة اجتماعية. وقد صاغ الروائي ماريو بارجاس يوسا شعار تلك الحرية الأميركية في روايته *دفاتر دون ريجو* قائلاً على لسان البطل وهو يخاطب عشيقته: «لا تصل الحرية في مجالها الواسع إلا في نطاق الفرد، موطنها الدافئ الذي تجسده حضركم بظرك المحارب، وأجسده أنا بقضيبي!» ويقول: «كل حركة تسعى لتقديم مصالح جماعية لطبقة أو سلالة أو أمة على سيادة الفرد تبدو لي مؤامرة لغرض المزيد من القيود على الحرية البشرية!»<sup>(٢)</sup> ولا يلمح ماريو

فتيل المقاومة من «جوهر» الدين الإسلامي، ويجرم الدفاع عن الوطن. وإذا تركنا المسرح السياسي الذي تنشط فوق منصته فرقة كتاب الرد السريع، فسنجد أن الخطاب الثقافي الأميركي لم يُهمل المسرح الأدبي والفكري وأدار على خشبته التهاويل الفكرية المجرمة في أودية فاحرة. فبدلاً من أن يقال إن الصراع الحقيقي يدور بين شعوب المنطقة والهيمنة الاستعمارية، يقال لنا بأصوات الحكمة إن القصة تكمن في «صراع الحضارات»، وإثنا نعاني من اعتلال خلقي يجعلنا لا نقبل ذلك «الأخر». ويتجاهل الجميع أن تاريخ حضاراتنا كلها هو تاريخ تفاعل مع الحضارات الأخرى، كما لا يحدد لنا أحد بصراحة من هو «ذلك الآخر»، وما إذا كان هو الاسم الحركي لإسرائيل مثلاً! وتبرز في الإطار نفسه قضية «الهوية» التي سقطت في غرامها مئات العشاق. ويتم تناولها باعتبارها قضية لا تجد إجابة عنها إلا في الماضي الفرعوني أو الإسلاميين أو الأوروبي الحديث، مع تفكيك الانتماء العربي ولاسيما إذا كان يؤجج مشاعر التضامن في قضايا الصراع المشترك. المطلوب إذن فصل الهوية عن قضايا المستقبل، والنظر إليها كظاهرة

١ - د. مجدي يوسف، من التداخل إلى التفاعل الحضاري (القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠١).

٢ - ماريو بارجاس يوسا، في مدح الخلاء، ترجمة صالح علماني (دمشق: دار المدى، ١٩٩٩).